الرحمة
في القرآن الكريم

إعداد:
د. أنور محمود المرسي خطاب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

فمما لا يشك فيه مسلم أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وهو رحمة للإنسانية، وصفه الله تعالى في أكثر من موطن بأنه رحمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل]، وقد أكد على صفة الرحمة في أكثر من موطن، وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم نجد كثيرًا منهم ابتعد عن كثير من أخلاق الإسلام عامة، وأخلاق القرآن خاصة، فباتت هناك صفات كادت تمحى من أذهانهم، ومن هذه الأخلاق وتلكم الصفات خلق الرحمة، فنجد كثيرًا منهم يتصف بالغلظة والقسوة مما أدى إلى إظهار الإسلام بمظهر الدين الفظ الغليظ، الذي يقسو على الناس، ويدعو أتباعه إلى القسوة، في حين أن حقيقة الأمر تختلف عن ذلك، فالدين رحمة كله، حتى ما فيه من تشريعات قد تبدو فيها قسوة بالتأمل الدقيق نجدها رحمة عظيمة، على حد قول أبي تمام:

فَقَسا ليزدجروا ومن يك حازمًا فليقْسُ أحيانًا على من يرحم

هذا وغيره مما يدعو المختصين إلى تأصيل هذا الخلق من القرآن الكريم ومن سنة النبي ﷺ، ولما كان الأمر كذلك رأيت أن أكتب هذا البحث المتواضع، بعنوان (الرحمة في القرآن الكريم)، لأشارك به في مؤتمر «الرحمة في الإسلام» الذي ينظمه قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية في جامعة الملك سعود.

أهداف البحث:

- تأصيل خلق الرحمة من خلال القرآن الكريم.
- بيان معنى الرحمة، وأوجهها في القرآن الكريم.
- بيان أنها صفة من صفات الله ﷻ.
- بيان أبرز مظاهر رحمته تعالى.
- بيان موجبات هذه الرحمة.
- أسباب اليأس من رحمة الله.
- بيان من وُصِف بالرحمة.

مشكلة البحث:

وجود كثير من المسلمين الذين تخلوا عن التحلي بهذه الصفة، ظنًّا منهم أنها ليست من الإسلام، مما أدى إلى إظهار الإسلام بغير صورته الحقيقية، مما يستدعي التأصيل لهذا الخلق من القرآن الكريم، المصدر الأول للتشريع الإسلامي.

أسئلة البحث:

١. يجيب البحث عن عدة أسئلة، أهمها:

٢. ما مفهوم الرحمة لغة واصطلاحًا.

٣. ما الأوجه التي جاءت عليها الرحمة في القرآن الكريم؟

٤. ما الألفاظ التي لها علاقة بالرحمة؟

٥. ما معنى الرحمة في حق الله تعالى؟

٦. ما موجبات الرحمة؟ وما أسباب اليأس من رحمة الله؟

٧. هل ورد وصف الرحمة بحق غير الله تعالى؟

أهمية الموضوع:

تأتي أهمية هذا الموضوع من ارتباطه بالإسلام نفسه ارتباطًا وثيقًا، إذ إن الإسلام دين الرحمة، ونبيه ﷺ نبي الرحمة، والإله الذي يدعو الناس لعبادته إله الرحمة، ومتصف بالرحمة، فهو ﷻ الرحمن الرحيم، وكتابه كتاب الرحمة، وتشريعاته كلها رحمة، وإبراز هذه الصفة يبرز الوجه الحقيقي للإسلام، مما يدعو الناس للدخول فيه.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة، فتشمل بيان أهمية الموضوع، وخطة البحث، ومنهج البحث.

وأما المباحث فهي كالتالي:

المبحث الأول: مفهوم الرحمة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المعنى اللغوي والاصطلاحي

المطلب الثاني: الرحمة في الاستعمال القرآني.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: الرحمة صفة من صفات الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الرحمة في حق الله تعالى، وأدلة كونها من صفاته تعالى.

المطلب الثاني: عموم رحمة الله تعالى.

المطلب الثالث: من مظاهر رحمته تعالى وآثارها.

المبحث الثالث: موجبات الرحمة، وأسباب اليأس والقنوط من رحمة الله، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موجبات الرحمة.

المطلب الثاني: أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله.

المبحث الرابع: من وُصِف بالرحمة في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الكتب السماوية.

المطلب الثاني: الرُّسُل.

المطلب الثالث: المؤمنون.

المطلب الرابع: الغيث.

المطلب الخامس: التشريعات الإلهية.

منهج البحث:

سأسلك في هذا البحث بإذن الله تعالى المنهج الموضوعي، فأذكر الآية أو الآيات التي تدل على الفكرة، وأبين موطن الشاهد منها، والنكات التفسيرية التي تتعلق بالموضوع، ولن أتعرض لتفاصيل تفسيرية، لا يقتضيها المقام، ولا تخدم فكرة الموضوع كثيرًا.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول
مفهوم الرحمة

المطلب الأول
المعنى اللغوي والاصطلاحي

بالنظر في المعاجم اللغوية نجد أن «الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على الرّقّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه. والرُّحْم والمَرْحَمَة والرَّحْمة بمعنىً»[١]

والرحمة مشتقة الرَّحِم[٢]، «والرَّحِمُ: بيْتُ مَنبِت الوَلَد، ووِعاؤه في البَطْن»[٣]، ومنه استعير الرحم للقرابة لخروجهم من رحم واحدة[٤]، وقد عكس ابن فارس، فجعل القرابة هي الأصل، ومنه أُخذ رحمُ الأنثى، فقال: «والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سمِّيت رَحِمُ الأنثى رَحِمًا من هذا، لأنّ منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقّ له مِن ولد»[٥].

واصطلاحًا:

عرفها الجرجاني بأنها «إرادة إيصال الخير»[٦] وقيل: هي «إفاضة الخير

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (رحم): ٢/٤٩٨.
(٢) الاشتقاق صـ: ٥٩.
(٣) العين باب الحاء والراء والميم: ٣/٢٢٤.
(٤) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف صـ: ٣٦٠.
(٥) معجم مقاييس اللغة مادة (رحم): ٢/٤٩٨.
(٦) التعريفات صـ: ١٤٦.

وإرادة إيصاله»[1] وقريب من ذلك تعريف ابن الجوزي لها بأنها «النعمة على المحتاج»[2] وقيل: هي «رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة... وإذا وصف به الباري فليس المراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز الله في طباع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان»[3]

المطلب الثاني
الرحمة في الاستعمال القرآني

إذا نظرنا في القرآن الكريم نجد أن الرحمة ذكرت بمادتها ومشتقاتها نحو الثلاث مائة والثلاثين مرةً، وذكرت مرادفاتها ومستتبعاتها من نحو النعمة والرأفة والعفو والمغفرة نحو الأربع مائة مرةً، فضلًا عما تضمنه القرآن الكريم من معانٍ للرحمة، وتشريعات كلها غاية في الرحمة بالإنسانية كلها، ونظرًا لضيق المقام، فسأذكر مادة الرحمة فقط، فأقول: إنها ذكرت في القرآن الكريم بصيغة الفعل والاسم، فأما الفعل فوردت بصيغة الماضي، ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦]، وبصيغة المضارع ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] وصيغة الأمر -الطلب- ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

أما الاسم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٤] وبصيغة المبالغة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وبصيغة التفضيل ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ٢/٩٥.
(٢) نزهة الأعين النواظر صـ: ٣٣١.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف صـ: ٣٦٠.

ووردت نكرة ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧]
ومعرفة بالإضافة في مثل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]
ومعرفة بـ (ال) ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

وذكرت في القرآن على أوجه كثيرة، تزيد عن العشرين وجهًا:

أحدها: الجنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

الثاني: الإسلام، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

الثالث: الإيمان، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

الرابع: النبوة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ [ص].

الخامس: القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل].

السادس: المطر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٧].

السابع: الرزق، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء].

الثامن: النعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥].

التاسع: العافية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨].

العاشر: النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب:١٧].

الحادي عشر: المنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٤].

الثاني عشر: الرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧].

الثالث عشر: المغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام].

الرابع عشر: السعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

الخامس عشر: المودة، ومنه قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

السادس عشر: العصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣].(١)

السابع عشر: التوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣].

الثامن عشر: عيسى عليه السلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١].

(١) ينظر: نزهة الأعين النواظر صـ: ٣٣١.

التاسع عشر: محمد ﷺ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] [١].

العشرون: الكتاب المنزل على موسى عليه السلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾ [الأحقاف:١٢].

الحادي والعشرون: الثناء على إبراهيم عليه السلام ومنه قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود:٧٣] [٢].

المطلب الثالث
الألفاظ ذات الصلة

هناك العديد من الألفاظ لها صلة بالرحمة، نذكر أبرزها، وهي:

الرأفة:

يقال: «رأفْتُ به أرءف رأفًا ورأفَة وأنا رءوفٌ ورَؤُفٌ - عطفْت عليه»[٣] قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد:٢٧].

والرأفة اصطلاحًا: «أشد الرحمة»[٤] «وأبلغها، فالمرؤوف به تقيمه عناية الرأفة، حتى تحفظ بمسراها في سره ظهور ما يستدعي العفو، وتارة يكون هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب وهذا خاص بمن له بالمنعم نوع وصلة. ذكره الحرالي في موضع، وقال في آخر: الرأفة عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم، تعم من لا صلة له بالرحم»[٥].

(١) الوجوه والنظائر: ١/ ٢٦١.
(٢) بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٥٥.
(٣) المخصص: ٣/ ٣٨١.
(٤) الصحاح، مادة (رأف): ٥/ ٤٨، وينظر: الفائق، الراء مع الهمزة: ١/ ٤١٦..
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف ص: ٣٥٣.

«وقيل: الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، والرحمة: إيصال النعم مطلقًا، وقد يكون مع الكراهة والألم للمصلحة، كقطع العضو المجذوم»[1]

وعلى هذا فالعلاقة بين الرحمة والرأفة هي العموم والخصوص المطلق، فالرحمة أعم من الرأفة عمومًا مطلقًا.

النعمة:

النون والعين والميم «راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، يدلُّ على ترفُّهٍ وطِيب عيش وصلاح»[2]. وهي «في أصل وضعها الحالة التي يستلذها الإنسان»[3] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

واصطلاحًا: «هي ما قصد به الإحسان والنفع، لا لغرض ولا لعوض»[4]، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

ويُفَرَّقُ بين الرحمة والنعمة: أن الرحمة: الإنعام على المحتاج إليه، وليس كذلك النعمة، لأنك إذا أنعمت بمال تعطيه إياه فقد أنعمت عليه ولا تقول: إنك رحمته»[5].

المغفرة:

الغين والفاء والراء عُظْمُ بابِه السَّتْر، فالغَفْر: السَّتر[6] قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح:٤].

(١) الفروق اللغوية ـ: ٢٤٦.
(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة (نعم): ٤٤٦/٥.
(٣) كتاب الكليات ص: ١٤٧٤.
(٤) التعريفات ص: ٣١١.
(٥) الفروق اللغوية صـ: ٢٥٣.
(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة مادة (غفر): ٣٨٥/٤.

قال أبو منصور: "أصل الغفْر: السّتر والتغطية"(١).

واصطلاحًا: «أن يستر القادرُ القبيحَ الصادرَ ممن تحت قدرته، حتى إن العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه، لا يقال: غفر له»(٢) أو هي: «وقاية شر الذنب، بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه»(٣).

قال ابن القيم: هي «محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له ولكن الستر لازم معناها»(٤).

وبناءً على ذلك يمكن التفرقة بين الرحمة والمغفرة بأن المغفرة ستر، والرحمة إنعام، فالمغفرة مقدمة على الرحمة، لأن المغفرة درأ مفسدة، ودرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح.

العفو:

لغة: «القصد لتناول الشيء»(٥) و«العفو ما جاء بغير تكلف ولا كره»(٦) و«عفوت عن ذنبه، إذا تركته ولم تعاقبه»(٧)

والعفو اصطلاحًا: «ترك العقاب على الذنب»(٨)، قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة:٤٣].

وعلى هذا فالعفو قريب من المغفرة، فلابد من وجود ذنب حتى يقال عفا عنه، أما الرحمة فهي محض إنعام.

(١) تهذيب اللغة، مقلوبة (غ ر ف): ١١٢/٨.
(٢) التعريفات صـ: ٢٨٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣١٧/١٠.
(٤) مدارج السالكين: ٣٠٧/١.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (عفا): ١٠٤/٢.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف ص: ٥١٨.
(٧) الصحاح مادة (عفو)٢٨٣/٧.
(٨) الفروق اللغوية صـ: ٣٦٣.

الرقة:

الراء والقاف أصلان: أحدهما صفةٌ تكون مخالفةً للجفاء، والثاني اضطرابُ شيءٍ مائع. فالأوّل الرِّقّة؛ يقال: رقّ يرِقّ رِقَّة فهو رقيق. ومنه الرَّقَاقُ، وهي الأرض الليِّنة... والأصل الثاني: قولهم: ترقْرَقَ الشَّيءُ، إذا لَمَعَ»[1].

الفرق بين الرقة والرحمة: أن الرقة والغلظة يكونان في القلب وغيره خِلْقة، والرحمة فعل الراحم، والناس يقولون: رق عليه فرحمه، يجعلون الرقة سبب الرحمة»[2].

القسوة:

القَسْوَة: «الصَّلاَبَةُ في كلِّ شَيْءٍ»[3]. واصطلاحًا: «غلظ القلب»[4]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤] وعلى هذا فالعلاقة بينها وبين الرحمة علاقة تضاد.

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (رق): ٢/٣٧٦.
(٢) الفروق اللغوية صـ: ٢٥٩.
(٣) العين، باب القاف والسين: ٥/١٨٩، تهذيب اللغة، باب القاف والسين: ٩/١٧٩، المحيط في اللغة، (القاف والسين ا وي): ٥/٤٧١.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (قسو): ٢/٢٤٣.

المبحث الثاني
الرحمة صفة من صفات الله تعالى

المطلب الأول
معنى الرحمة في حقه تعالى
وأدلة كونها من صفاته تعالى

مما لا شك فيه عند جميع المسلمين أن «الرَّحْمَةَ: صفة من صفات الله، اشتق لنفسه منها اسم (الرحمن) و(الرحيم)، و(الرحمن) هو: ذو الرحمة الشاملة في الدنيا لجميع المخلوقين، و(الرحيم). هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة»[1]، وهي صفةٌ كريمةٌ من صفاتِ الله تظهرُ آثارُها فيمن شاء أن يرحمَه مِنْ خَلْقِه، ونحنُ نُثْبِتُ لله ما أثبتَه لنفسِه على أكملِ الوجوهِ وأنزهِها وأقدسِها وأليقِها بالله، وأبعدِها عن مُشَابَهَةِ صفاتِ المخلوقين»[2].

واختلف العلماء في هذه الصفة؛ أهي صفة ذات أم صفة فعل؟ فرجح بعضهم أنها صفة فعل، لأنه تعالى يرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، وحيث تعلقت بها المشيئة والقدرة فهي صفة فعل. وأما من عدها من صفات الذات، فباعتبار أن الله لم يزل متصفًا بالرحمة، فالرحمة ملازمة لذاته تعالى وإن تجددت أفرادها.

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٢/٤٠٣.
(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٣/٤٠٨.

يقول الشنقيطي: "والحق أنها صفة ذات من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ المخْلُوقِين، ليس فيها رقة مخلوقية، ولا انعطاف مخلوقي، لا وَكَلَّا، بل هي صفة كمال وجلال لائقة برب العالمين، منزهةٌ كل التنزيه، مقدسةٌ كل التقديس، لم تشبه شيئًا من صفات الخلق"(١).

وبالتأمل نجد أن للرحمة شقين: الأول دلالتها على ذاته تعالى. والثاني تعلقها بالمرحوم. لذلك يقول ابن القيم في بيان سر الجمع بين وصفي الرحمن والرحيم في القرآن الكريم: «وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى؛ وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به ﷻ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته»(٢)

وقد فسرها المُؤَوِّلَةُ بغايتها، فقد قال الرازي: «كل صفة يستحيل حقيقتها على الله ﷻ تفسر بلازمها، فجميع الأعراض النفسانية أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والمكر والاستهزاء، لها أوائل ولها غايات، مثاله الغضب، فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غرضه الذي هو إرادة الإضرار..»(٣)

أقول: لا أريد الخوض في الخلاف في مسألة التأويل والتفويض، ويكفي أن أقول: إننا ندين لله تعالى بمذهب السلف ﷺ من الإيمان بهذه الصفات،

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: ٢٠٢/٤.
(٢) بدائع الفوائد: ٢٨/١.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢١١/١، الإتقان في علوم القرآن: ٢٣/٣، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: ٢٤٠/١.

وأنها معلومة المعنى، مجهولة الكيف بالنسبة لله تعالى، فهو ﷻ متصف بالرحمة، فهو رحمن رحيم، ونحن ندرك آثار هذه الرحمة في الكون، ولا يلزمنا العلم بكيفية اتصافه تعالى بهذه الصفات، والواجب على العقل أن لا يتخطى المساحة المتاحة له من التفكير، وإذا كان من مخلوقات الله تعالى ما لا يمكن للبشر أن يتخيله، وهو الجنة، فهي كما قال ﷺ: (فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1]. فكيف يخطر الخالق ﷻ على قلب بشر؟! إن محاولة العقل البشري الوصول إلى الكيفية أمر عبثي، يجب أن يكف عنه، ويجب علينا أن نوقن بأن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والعجز عن الإدراك إدراك، والبحث في كنه ذات الله إشراك، يقول الشيخ الغزالي: «ويُخَيَّل إليَّ أن جهازنا العقلي، لا يزيد عن أجهزة الاستقبال المتداولة في الأسواق، فلو تسلط عليه تيار ذو قوة أعلى لاحترق لفوره.. إن عظمة الله فوق العقول...»[2] نسأل الله أن يدخلنا في رحمته، وأن يبعدنا عن النار.

ثم إن أدلة ثبوت هذه الصفة متوافرة، تجل عن الحصر، تواترت وتضافرت بذلك آي الكتاب العزيز، وسنة المصطفى ﷺ، بل وبذكرها افتتح بها كتابه، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] وثنى بها في أم الكتاب ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] وكتبها على نفسه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

وقد ورد اسم الرحمن في القرآن الكريم ثمان وأربعين مرة، وورد اسمه الرحيم أربعًا وثلاثين مرة، وورد وصفه بالرحمة وبيان اتصافه تعالى بها خمس مرات، منها: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

وورد نسبة الرحمة إليه في مواطن كثيرة، منها ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان:٣١].

(١) أخرجه مسلم ك/ الجنة وصفة نعيمها: ٤/٢١٧٥ رقم (٢٨٢٥)
(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم صـ: ١١.

ومن الأحاديث في ذلك ما ورد في الحديث القدسي (قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته)[1] وفي الحديث النبوي: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مئة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة؛ إنه وتر يحب الوتر؛ هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس...)[2] وقال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن...)[3] وعن أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[4].

المطلب الثاني
عموم رحمة الله تعالى

بالتأمل في القرآن الكريم نجده يؤكد على عموم رحمة الله ﷻ وشمولها، للمؤمن والكافر، والإنسان وغير الإنسان، فنجد قول الله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

(١) أخرجه الترمذي ك/ البر والصلة ب/ قطيعة الرحم: ٣١٥/٤ رقم (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح.
(٢) أخرجه الحاكم ك/ الإيمان: ٦٢/١ رقم (٤١) وقال: هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر أسامي فيه ولم يذكرها غيره. وليس هذا بعلة، فإني لا أعلم اختلافًا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب، ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد رواه عبدالعزيز بن الحصين عن أيوب السختياني وهشام بن حسان جميعًا عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بطوله. قال الذهبي: لم يخرجا الأسامي لتفرد الوليد بها وليس ذا بعلة فالوليد أوثق وأحفظ من أبي اليمان وعلي بن عياش.
(٣) أخرجه الترمذي ك/ البر والصلة ب/ رحمة المسلمين: ٣٢٣/٤ رقم (١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه البخاري -واللفظ له- ك/ صفة الصلاة ب/ الدعاء قبل السلام: ٢٨٦/١ رقم (٧٩٩)، مسلم ك/ الذكر والدعاء ب/ استحباب خفض الصوت بالذكر: ٢٠٧٨/٤ رقم (٢٧٠٥)

وقال رسول الله ﷺ: «خلق الله مئة رحمة، فوضع رحمة واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسع وتسعون رحمة»(١) وقال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»(٢).

ثم إن من هذه الرحمة العامة ما يشمل الخلق والرزق والمطر والدعوة إلى الإيمان، وعدم المؤاخذة على الذنوب في الدنيا، إلى غير ذلك من رحمات تتعلق بأمور الدنيا، فأما الرحمة بمعانيها الخاصة، فهي خاصة بمن خصه الله بها، ومن ذلك:

- الرحمة بمعنى الجنة خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران] «يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل»(٣) ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: «يريد: ففي جنة الله.. وإنما قيل للجَنَّة: رحمةُ الله؛ إعلامًا أن العبدَ لا يدخلها إلا برحمته، وإن اجتهد في طاعته»(٤). «فجعلهم مستقرين في الرحمة، فهي ظرف لهم وشاملتهم»(٥).

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء:١٧٥] «قال ابن عباس ﷺ: هي الجنة وما يتفضل عليهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(٦) ولما قال الأعرابي في الصَّلاَة: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِى وَمُحَمَّدًا، وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا. فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ للأعرابي: «لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا» يُرِيدُ رَحْمَةَ الله ﷻ.(٧)

(١) أخرجه الترمذي ك/ الدعوات ب/ خلق الله مئة رحمة: ٥/٥٤٩ رقم (٣٥٤١) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه البخاري ك/ بدء الخلق ب/ ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ٣/١١٦٦ رقم (٣٠٢٢)
(٣) لباب التأويل: ١/٢٨٣.
(٤) التفسير البسيط: ٥/٤٩٠.
(٥) البحر المحيط: ٣/٢٨.
(٦) إرشاد العقل السليم: ٢/٢٦٣.
(٧) أخرجه أبو داود ك/ الصلاة ب/ الدعاء في الصلاة: ١/٣٢٩ رقم (٨٨٢) قال الألباني: صحيح.

- الرحمة بمعنى الهداية الخاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧] فهنا وصف القرآن بأنه «كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع، فإنه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها، مرغب في الأولى، ورادع عن الأخرى، ومبين للمعارف الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة، وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس، وفي مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران، وارتقوا إلى درجات الجنان»(١)، فهو يحصلُ لهم الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه(٢).

- الرحمة بمعنى الرسالة، خاصة بالرسل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨] فالآية تأتي في سياق الحديث عن نوح عليه السلام ودعوته لقومه، فَتَذْكُر هذه الآية أنه قال لهم: أخبروني، إِنْ كُنْتُ على حجة شاهدة بصحة دعواي الرسالة أو معجزة. وَآتانِي النبوة، فخفيت عليكم، فلا أقدر على أن ألزمكم ما أنتم كارهون له، فالمراد بالرحمة هنا «إمَّا النبوة، وإمَّا المعجزة الدَّالة على النبوَّة»(٣)

ومثل ذلك قوله تعالى: في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود:٦٣] إلا أنه هنا قدم الجار والمجرور على

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/١٥٥.
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٧٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب: ١٠/٤٧٠.

﴿رَحْمَةً﴾ وأخر في قصة نوح عليه السلام الجار والمجرور ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ عن ﴿رَحْمَةً﴾ ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ لنكتة ذكرها ابن عاشور، فقال: «إن ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل، هو أيضًا أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس. فلما كان مجرور «من» الابتدائية ظرفًا وهو «عند» كان صريحًا في وصف الرحمة بصفة تدل على الاعتناء الرباني بها وبمن أوتيها. ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله مشيرًا إلى إيتاءٍ خاصٍ ذي عناية بالمؤتى، إذ لولا ذلك لكان كونه من الله تحصيلًا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاءً خاصًّا، ولو أوقع ﴿مِنْهُ﴾ عقب ﴿رَحْمَةً﴾ لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة، أي: عن أن يقال: وآتاني رحمته»[1].

وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] «الظاهر المتبادر أن المراد بـ: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ النبوة وإنزال الوحي»[2]، وذلك أنه ذُكر هذا الرد عقب ذِكر اعتراض كفار مكة على نزول القرآن على محمد اليتيم الفقير دون أكابر قريش وثقيف، فكان الرد الإلهي عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوة والرسالة.

المطلب الثالث
من مظاهر رحمته سبحانه وتعالى وآثارها

إذا نظرنا إلى رحمة الله تعالى نجد لها مظاهر كثيرة تجل عن الحصر،

(١) التحرير والتنوير: ١١/ ٢٩٠.
(٢) أضواء البيان: ٧/ ١١١.

وسوف أوجز القول في بعض هذه المظاهر، بما لَعَلَّهُ يفي بالمقام، فأقول: هذه المظاهر يمكن تقسيمها إلى مظاهر دنيوية وأخرى أخروية:

أولًا: المظاهر الدنيوية، وهي إما عامة لكل الخلق، وإما خاصة بالأنبياء، وإما خاصة بالمؤمنين، فالعامة لكل الخلق منها:

- **إرسال الرسل وإنزال الكتب**، فهذا رحمة لكل الناس، لأن هذه الرسالات يستفيد منها الناس كلهم، لذلك يقول تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧] «وصف ﷻ الكتاب بأربعة أوصاف؛ أولها: أنه ﴿بَيِّنَةٌ﴾ أي: هو بَيِّنٌ في ذاته، وفيما دل عليه من شرائع بَيَّنَها وفصَّلها، وأَحْكَمَ بيانها. ثانيها: بأنه ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم ويعرف ما يُصْلِح أموركم، وينفعكم في معاشكم ومعادكم. وثالثها: أنه فيه الهداية إلى الصراط المستقيم وإصلاح نفوسكم، وهداية جمعكم. ورابعها: أن فيه الرحمة بكم؛ لأن فيه الشريعة المحكمة وهي رحمة للعالمين، ولأنه هو نبي الرحمة، قد جاءكم القرآن بما تطلبون أو بما تتمنون، أو بما يكون فيه ادعاؤكم، فهل آمنتم؛ كلا، لم يؤمنوا»[1] وهذه الرحمة عامة لكل الخلق، حيث وضح الطريق لمن أراد أن يهتدي.

- **عدم مؤاخذة الناس بذنوبهم في الدنيا**، حتى يكون أمامهم فرصة للتوبة والرجوع إليه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام] فقد بين ﷻ في الآية السابقة لهذه الآية أن لكل عامل بطاعة أو معصية درجةً على قدر عمله، فَبَيَّن هنا أن ذلك ليس لأنه محتاج إلى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصي، بل هو

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٧٤٩.

الغني على الإطلاق وأن جميع الخلق فقراء إليه ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ قال ابن عباس: بأوليائه وأهل طاعته، وقال الكلبي: بخلقه، ذو التجاوز عنهم، فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون[1]، فالمقصُود من الوصف بذي الرّحمة هنا تمهيد لمعنى الإمهال الّذي في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، أي: أنَّه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم، فما إمهاله إياهم إلا لأنه الغني ذو الرحمة[2].

ويقول ﷻ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام] يخاطب المولى ﷻ نبيه ﷺ آمرًا إياه أن يرد على تكذيب المشركين له بأن يقول لهم: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ﴾ "بتأخير العقوبة عنكم، فإن رحمته تسع المسيء والمحسن، فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه"[3] ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾ «عذابه إذا جاء الوقت ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يعني: الذين كذبوك بما تقول»[4] وفي الآية «تنبيه لهم بأن تأخير العذاب عنهم هو إمهال داخل في رحمة الله رحمة مؤقتة، لعلهم يسلمون»[5]

- **خلق الليل والنهار**، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] فهو ﷻ يذكر بعض مظاهر رحمته على جميع خلقه، فإن «﴿وَمِن﴾ تبعيضية، فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية، لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة... والمقصود إظهار أن هذا رحمة من الله، وأنه بعض من رحمته التي وسعت كل شيء، ليتذكروا بهما نعمًا أخرى»[6]، ويا لها من نعمة؛ نعمةُ تَعاقُبِ الليل

(١) ينظر: لباب التأويل: ١٥٩/٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٦٥/٧.
(٣) لباب التأويل: ١٦٩/٢.
(٤) التفسير البسيط: ٥١٠/٨.
(٥) التحرير والتنوير: ١٠٨/٧.
(٦) التحرير والتنوير: ١٠١/٢٠.

والنهار، يستراح بالليل، ويسعى الإنسان لتحصيل العيش بالنهار، ولو كان الزمان كله نهارًا أو ليلًا لكان فيه عنتًا ومشقة على الإنسان، ولا يستطيع ذلك الأمرَ إلا الله تعالى برحمته، ولو شاء لأدام الزمان على هيئة واحدة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] فهذه نعمة كبرى، نعمةُ خَلْقِ الليل والنهار متخالفين مختلفين حتى تستمر الحياة.

- **الرزق**، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء] يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنهم لو كانوا يملكون خزائن الأرزاق لأمسكوا بخلًا وشحًّا وخوفًا من الفقر، والخطاب في الآية للناس كلهم، وهذا الرزق عام لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، فهو ﷻ يرزق من يشاء بغير حساب.
- **إنزال المطر**، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٧] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] تتضمن الآيتان «ذكر نعمة من النعم التي أنعم بها على عباده مع ما في ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته»(١)، هذه النعمة هي نعمة إنزال المطر من السماء، فـ«المراد بـ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ المطر، لأنه رحمة للناس والحيوان بما يُنْبته من الشجر والمرعى»(٢) وقد «جاء مبينًا في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨]، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]»(٣) فالآيات دالة على أن المراد بالرحمة في مثل هذه الآيات المطر، والمطر ينزل رحمة من الله تعالى بكل الناس.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: ٣٨١/٤.
(٢) التحرير والتنوير: ٦٩/١٩.
(٣) أضواء البيان: ٣٣/٢.

- **رفع الضر عنهم**، وشمولهم بالنعم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس:٢١] فالآية تحكي حال الإنسان، فإنه في حال الضر يلجأ إلى ربه ليكشف عنه هذا الضر، وعندما يكشفه تعالى «بدا المكرُ السيئُ الذي أخفته الضراء، فإن تدبير اللَّه ورده عليهم أقوى وأحدُّ»[١]

وأما الخاصة بالأنبياء فمنها:

- **تخصيصهم بالرسالة**، قال تعالى: حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود:٢٨] هذه الآية في سياق قصة مجادلة نوح عليه السلام لقومه، فعندما قال له قومه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧] قال لهم: أخبروني إن كنتُ على بيان ويقين من ربي، وأعطاني نبوة من عنده، فخفيت عليكم، لا أقدر على إلزامكم إياها مع كراهتكم لها، أي: «ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى، وإن كان واضحًا جليًا لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله جل جلاله إليه»[٢]، فالمراد بالرحمة هنا النبوة -كما قال ابن عباس رضي الله عنهما-[٣]، فهي الرحمة العظمى بهم وبالإنسانية كلها، وإنما جعلت رحمة؛ لأن الله جل جلاله يتناول بها الخلق من العطب والهلكة، «وذكر الرحمة هاهنا نقضًا عليهم فيما ادّعوه من أنه ليس له عليهم فضل، فبين ذلك بالنبوة والهداية إلى الحق من جهة البرهان المؤدي إلى العلم»[٤] ولا شك أن النبوة خاصة بهم، لا تتخطاهم إلى عوام الناس.

(١) زهرة التفاسير: ٣٥٤٣/٧.
(٢) أضواء البيان: ١٧٧/٢.
(٣) ينظر: النكت والعيون: ٤٦٦/٢، زاد المسير: ٩٧/٤. وروي ذلك عن ابن جريج. ينظر: جامع البيان: ٢٩٩/١٥.
(٤) التفسير البسيط: ٣٩٨/١١.

- **حفظهم من إضلال الناس**، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء:١١٣] والآية واضحة الدلالة على أن الله تعالى حفظ رسله من إضلال الناس، برحمته ﷻ

- **إنجاؤهم من كيد الكافرين**: قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف] الآية جاءت في سياق ذكر هود عليه السلام فتذكر أن الله تعالى أنجاه والمؤمنين معه من العذاب الذي نزل بقومه عاد، وهذا الإنجاء إنما هو برحمة من الله تعالى، والمراد بالرحمة رحمة خاصة منه تعالى، لا تتم إلا لمثلهم، وهذه الرحمة هي التي طلبها موسى عليه السلام من ربه ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٦] والتعبير عن هذا الإنجاء بالرحمة للدلالة على أن هذه النجاة بفضل الله تعالى وليس باستحقاق.

- **تمكينهم ومن اتبعهم في الأرض**، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف] فيوسف عليه السلام بعدما أوذي أشد الإيذاء من أقرب الناس إليه إخوته حين ألقوه في الجب، وأوذي من امرأة العزيز، وسجن ظلمًا وعدوانًا، ولكن إرادة الله غالبة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١] وهكذا سنة الله في رسله أن ينصرهم ومن اتبعهم بفضله ورحمته ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور] فهذا وعد من الله تعالى

ووعده حق لا يتخلف، وإذا لم نر الموعود في الواقع فذلك لتخلف شرط من شروط الوعد، لا لتخلف الوعد.

والخاصة بالمؤمنين منها:

- **تثبيتهم على الإيمان**، وهم دائمًا يطلبون من ربهم ذلك ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران] فالمؤمنون يطلبون من الله تعالى أن لا يميل قلوبهم عن الحق بعد الهداية إليه، ويسألونه الثبات على الإيمان، إذ معنى ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ «وآتنا من لدنك رحمة وتوفيقًا وتثبيتًا للذي نحن عليه من الهدى والإيمان»[1]

- **حفظهم من الشيطان**، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣] أي: «لولا هذا الفضل وتلك الرحمة من الله بهذه الأمة لضل الكثير من أبنائها باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة في النفوس»[2]، ولبقي الكثير من أبنائها على الكفر، إلا طائفة قليلة، فهذه رحمة خاصة بالمؤمنين، حيث حفظهم المولى ﷻ من اتباع الشيطان وكيده، ووفقهم إلى الإيمان والخير. نسأل الله تعالى أن يديم علينا رحمته.

- **عدم مؤاخذتهم بالذنوب في الدنيا**، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور]هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الإفك، وقد خاض فيه جماعة من المؤمنين، مع من خاض فيه من المنافقين، فجاءت هذه الآية لتخبر أنهم بفعلهم هذا استحقوا العقوبة، واستوجبوا نزول العذاب، وأنه

(١) الكشف والبيان: ٣/١٧، معالم التنزيل: ٢/١١.
(٢) التفسير الوسيط: ٢/٨٦٤.

لولا وجود فضل الله تعالى ورحمته لأصابهم بسبب ما فعلوا عذاب عظيم، وهذا من رحمة الله بهم، رحمة في الدنيا، حيث لم يُنْزِل بهم العذاب في الدنيا، ورحمة في الآخرة، لأنه لو عاجلهم بالعذاب قبل أن يتوبوا فسوف يكون مصيرهم إلى النار، فلذا أمهلهم في الدنيا، ليكون أمامهم فرصة للتوبة.

- **تخفيفه في التشريعات عليهم**، فالناظر في تشريعات الإسلام كلها يجدها رحمة بالمسلمين، بل وبالبشرية كلها، بل وبكل العالمين، وقد أشار القرآن إلى هذه الرحمة في تشريع القصاص، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ ... ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة١٧٨] «وأضاف هذا التخفيف إلى الرب، لأنه المُصْلح لأحوال عبيده، الناظر لهم في تحصيل ما فيه سعادتهم الدينية والدنيوية[١] وإذا أردنا أن نفصل في بيان الرحمة في تشريعات الإسلام لما استطعنا أن نحصيها، وتفصيل الكلام فيها له مقام آخر.
- **ترقيق قلب الرسول ﷺ عليهم**، وجعله لين الجانب للمؤمنين، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩] فأثنى تعالى على رسوله ﷺ بأنه لين الجانب للمؤمنين، «ومعنى ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو توفيق الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ للرفق والتلطف بهم، وأن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف، حتى فعل ذلك معهم»[٢] وإنما أخبر ﷻ أن لينه معهم برحمة الله تعالى، لأن «لينه في ذلك كله لينٌ لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التساهل في أمر الدين، فلذلك كان حقيقًا باسم الرحمة»[٣] والآية وإن كانت في سياق الحديث عن غزوة

(١) البحر المحيط: ١٧/٢.
(٢) لباب التأويل: ٣١١/١.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦٥/٣.

أحد، إلا أن حسن الخلق ولين الجانب مع المؤمنين خاصة والناس عامة صفة ملازمة لرسول الله ﷺ وهذا رحمة من الله تعالى

وأما المظاهر الأخروية فهي خاصة بالمؤمنين، وهي تتمثل في:

- **إنجاؤهم من النار**، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٥-١٦] هذه الآيات في سياق الاحتجاج على الكفار، بإثبات أدلة وجود الله تعالى ووحدانيته، فيأمر ﷻ نبيه ﷺ أن يقول لهم: إني أخاف أن أعصي الله تعالى، فيكون مصيري يوم القيامة في العذاب العظيم، فأكون قد حُرِمْتُ من رحمته الواسعة، لأن من مظاهر هذه الرحمة دفع هذا العذاب عن الإنسان، وهذا هو الفلاح الظاهر، كما قال تعالى: في آية أخرى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] ومما لا شك فيه أن النجاة من هذا العذاب تكون للمؤمنين الصادقين في إيمانهم مع الله تعالى.
- **إدخالهم الجنة**، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران] أي: «ففي جنة الله»[1]، ومعلوم أن المؤمنين هم الذين تبيض وجوههم يوم القيامة، والدليل على ذلك أنه قابل بينهم وبين الطرف الآخر بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وإنما ذكر سبب تعذيب الكفار ولم يذكر أعمال المؤمنين إشارة إلى أن تعذيب الله لهم عدل وجزاء عن كفرهم، ورحمته بالمؤمنين محض تفضل لَا جزاء عملهم بوجه[2].
- **مساواة أصحاب الأعذار للأصحاء في الأجر**، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾

(١) التفسير البسيط: ٥/٤٩٠.
(٢) ينظر: تفسير ابن عرفة: ١/٣٩٤.

[النساء:٩٥] فهذه الآية الكريمة تتحدث عن فضيلة المجاهدين، وتبين أنهم لا يتساوون في الأجر مع من لم يجاهد، فالمجاهدون لهم فضل عظيم وثواب جزيل، وهذه الآية نزلت ابتداءً بدون ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ فشكا أصحاب الأعذار لرسول الله ﷺ أنهم ما منعهم إلا عذرهم، فنزلت هذه الجملة الاعتراضية، فعن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: «ادعوا فلانًا» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾» وخَلْفَ النبي ﷺ ابنُ أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير، فنزلت مكانها ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] فهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين يوم القيامة أنه يعطي أصحاب الأعذار من المؤمنين الذين ينصحون لله ورسوله من الثواب على الأعمال التي لا يستطيعون فعلها لعذرهم مثل من فعل هذه الأعمال من الأصحاء، لذلك قال النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[2] وهذه الآية وإن كانت في الجهاد إلا أن العلماء استنبطوا منها "أنّ المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح، إذا كانت نيّته أن يفعل، وقد عمل ما يقدر عليه"[3] وهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري -واللفظ له- ك/ التفسير ب/ سورة النساء: ٤/١٦٧٧ رقم (٤٣١٨)، مسلم ك/ الإمارة ب/ سقوط فرض الجهاد عن المعذورين: ٣/١٥٠٨ رقم (١٨٩٨)
(٢) أخرجه البخاري ك/ المغازي ب/ نزول النبي ﷺ الحجر: ٤/١٦١٠ رقم (٤١٦١)
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٣/٢٣٦.

المبحث الثالث
موجبات الرحمة،
وأسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

المطلب الأول
موجبات الرحمة

لما كانت رحمة الله تعالى واسعة وشاملة فلا بد للإنسان أن يتعرض لها حتى يستوجب هذه الرحمة، هذا الوجوب وجوب تفضل من الله تعالى لوعده بذلك، ووعده لا يتخلف، وليس وجوب قصرٍ وإلجاء، وقد ذُكِر في القرآن الكريم أشياء كثيرة موجبة لهذه الرحمة، منها:

- **طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ**، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢] بعد أن نهى المولى ﷻ المؤمنين عن أكل الربا، وأمرهم بأن يفعلوا ما ينجيهم من النار التي أعدها للكافرين، يأمرهم في هذه الآية بطاعته ﷻ وطاعة رسوله ﷺ، راجين بهذه الطاعة أن يفوزوا برحمة الله تعالى، وقد «ذكر الرسول ليعلم أن أوامره شريعة واجبة، وإن لم ينطق بها الكتاب»[1] و(لعل) إما أن تكون بمعنى الرجاء، ويكون الرجاء من جانب المخاطبين، أو بمعنى التوقع، والمعنى: يُتوقع أن تصلوا إلى رحمة الله تعالى إن أطعتموه وأطعتم

(١) درج الدرر: ٢/٥٢٩.

رسوله ﷺ، أو يكون (لعل) من الله تعالى وعد محقق الوقوع، ويكون أتى بلفظ الرجاء مع أن طاعة الله والرسول لازمة للرحمة، على عادة الأمراء والسلاطين في وعدهم أنهم يعبرون عن الأمر الثابت المحقق الذي يلتزمون فعله بلفظ الرجاء، وإما أنه باعتبار نية المكلف، وأنه يفعل العبادة غير معتقد للثواب والرحمة بل يترجى ذلك، ويطمع فيه فقط، ولا ينبغي له أن يكتفي بعمله، ولا يقطع بذلك بوجه[1].

- **اتباع القرآن الكريم**، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام] مما لا شك فيه أن القرآن الكريم أُنزل لأمورٍ ثلاثة، الإعجاز والتحدي، والتعبد بتلاوته، والعمل بما فيه، فهو منهاج تسير عليه البشرية إلى يوم القيامة، ولم ينزل ليهجره الناس، وهذه الآية توضح هذا الأمر، فهي تخبر أن القرآن كثير الخير والنفع والبركة ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: فاعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام، وَاتَّقُوا مخالفته وتركَ العملِ به، وليكن الغرض من اتباعه ومن التقوى رحمة الله[2]، «أي: إذا اجتمع اتباع القرآن والأخذ بهدايته وشريعته، وكانت التقوى في قلوبكم، فإن الرحمة ترجى لكم»[3] فهذا سبب من أسباب نزول رحمة الله تعالى.

- **الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له**، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف] يأمر تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن، لكي يصلوا إلى رحمة الله تعالى، فهذا سبب للوصول إلى هذه الرحمة. والاستماع: طلب السماع، و(الإنصات السكوت للاستماع)[4] و"جمع بين

(١) ينظر: تفسير ابن عرفة: ١/ ٤١٠.
(٢) ينظر: لباب التأويل: ٢/ ١٧٤.
(٣) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٧٤٧.
(٤) التفسير البسيط: ٩/ ٥٦٣.

الاستماع والإنصات، لأنهما معًا أَعون على الفهم والتدبر، وأَتمُّ في الانتفاع، وأَرجى لرحمة الله ﷻ، فضلًا عما فيه من الأَدب مع الله، واحترام كلامه ﷻ"[1]، والمقصود أن لا ينشغل الإنسان عن سماع القرآن، حتى يصل إلى فهمه وتدبره والعمل بما فيه، وإلا فالاستماع والإنصات بدون العمل لا يؤدي إلى رحمة الله تعالى

- **إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة**، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور] جمعت هذه الآية ثلاثة أشياء؛ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول، والمعنى: «افعلوا هذه الأشياء على رجاء الرحمة»[2]، «لأن الله ما أطمعهم بتلك الرحمة عند عملهم بموجبها إلا ليرحمهم، لما هو معلوم من فضله وكرمه»[3] وقد تقدم القول في طاعة الرسول.

وإقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة الأركان والهيئات والشروط في أوقاتها. وإيتاء الزكاة: إخراج جميع أنواع الزكوات على الوجه المطلوب شرعًا وإعطاؤها لمستحقيها. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

- **الاستغفار**، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل] تحكي الآية الكريمة مقولةً لصالح عليه السلام لقومه يستنكر فيها استعجالهم نزول العذاب، حيث عقروا الناقة وطلبوا نزول العذاب، كما قال تعالى:

(١) التفسير الوسيط: ٣/١٥٧٥.
(٢) لباب التأويل: ٣/٣٠٤.
(٣) أضواء البيان: ٥/٥٥٤.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف]، وكان الأجدر بهم أن يطلبوا الحسنة، وأن يطلبوا مغفرة الله تعالى ويتوبوا من ذنوبهم، وأولها الشرك رجاء أن يُرحموا في الدنيا والآخرة، فرحمة الآخرة لا تكون إلا للمؤمنين.

- **البعد عن المعاصي**، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [يس] يخبر تعالى «عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويُؤَمنكم من عذابه»[1]، وقيل المعنى: «احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله وَمثُلاته بمن حلّ ذلك به من الأمم قبلكم أن يحلّ مثله بكم بشرككم وتكذيبكم رسوله ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وما بعد هلاككم مما أنتم لاقوه إن هلكتم على كفركم الذي أنتم عليه»[2]، وهو يؤول إلى المعنى الأول، إذ اتقاء هذه الأمور إنما يكون بترك المعاصي. وجواب ﴿إذا﴾ -على القولين- «محذوف، أي: أعرضوا، يدل عليه بعده ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾»[3]، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الذنوب تؤدي إلى العذاب، وأن تركها يؤدي إلى رحمة الله تعالى.

- **الإصلاح بين المؤمنين وتقوى الله تعالى** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] يقرر المولى ﷻ حقيقة يجب أن تسود بين المؤمنين كلهم، وهي حقيقة الأخوة الإيمانية التي تجمعهم، فهناك أخوة النسب، وأخوة الإنسانية، والأخوة الإيمانية، وهذه هي التي ينبغي أن تسود بين أبناء المجتمع الإيماني، وتُقَدَّمُ على

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٥٨٠.
(٢) جامع البيان: ٢٠/ ٥٢٥.
(٣) اللباب في علوم الكتاب: ١٦/ ٢٣٢.

الأُخُوَّتَين الأخريين، فالمؤمنون كلهم أخوة، وإن وقع شقاق بين جماعتين من المؤمنين، فيجب على المجتمع الإيماني أن يقوم بواجب الإصلاح بينهما، وأن يرأب ما بينهما من صدع، وأن يصلح ما وقع من فساد، ولو كانت إحداهما باغية أخذوا على يديها، حتى ترجع إلى حكم الله تعالى، ويجب عليهم أن يتقوا الله ﷻ في القيام بهذا التكليف وغيره من التكليفات، فإن هم قاموا بواجب الإصلاح بين المتخاصمتين وتحلوا بتقوى الله تعالى فإنه يرجى لهم أن يصلوا إلى رحمة الله ﷻ، رحمة الله في الدنيا والآخرة، فإنهم إن تركوا الطائفتين في خلافهما، فسوف تسال الدماء في المجتمع المسلم، وتُزهق الأرواح، فالإصلاح بينهما يرحم المجتمع في الدنيا من ويلات الحروب ودمارها، ويؤدي إلى الرحمة في الآخرة، فإنه (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)[1] فبالإصلاح بينهما تُرجى الرحمة في الآخرة للمُصْلِح، حيث امتثل أمر الله تعالى، وللمقتتلين حيث يخرجان من هذا الوعيد.

المطلب الثاني
أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

مع سعة رحمة الله تعالى إلا أننا نجد بعض الناس ييأس من هذه الرحمة، واليأس من رحمة الله كبيرة من الكبائر، نهى الله تعالى عنها مهما كثرت ذنوب العبد، فقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] بل ذهب بعض العلماء إلى أنه كفر، قال الرازي: «واعلم أنَّ اليأس من رحمة الله لا يحصلُ

(١) أخرجه البخاري ك/ الديات ب/ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾: ٦/ ٢٥٢٠ رقم (٦٤٨١)، مسلم ك/ الفتن وأشراط الساعة ب/ إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: ٤/ ٢٢١٣ رقم (٢٨٨٨)

إلاَّ إذا اعتقد الإنسان أنَّ إله العالم غير قادرٍ على الكمالِ، أو غير عالم بجميع المعلوماتِ، أو ليس بكريمٍ، بل هو بخيلٌ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر»[1]

هذا اليأس له أسباب كثيرة، وهي على كثرتها ترجع إلى البعد عن منهج الله تعالى، وقد أشار إلى ذلك يعقوب عليه السلام عندما طلب من بنيه أن يبحثوا عن يوسف عليه السلام وأخيه، فقال -كما حكى القرآن الكريم-: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف] فنهاهم عن اليأس من رحمة الله، و»جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين، إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى»[2]، ومن الملاحظ أن هذا الخبر جاء بصيغة الحصر، فالكفر سبب رئيس من أسباب اليأس من رحمة الله، فما أبعد المؤمن عن هذه الصفة، ولا يتصف بها إلا مرضى القلوب، لذلك عندما نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة الكافرين أخبر أن بعض أصحاب أمراض القلوب يوالونهم خوفًا منهم، ويأسًا من رحمته تعالى، فقال ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة] فالمؤمن يرجو رحمة الله على كل حال، وفي كل مكان وزمان، ويحسن الظن بالله، والله تعالى عند ظنه، كما قال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء)[3].

وهذا إبراهيم عليه السلام حين أتته ملائكة ربه تبشره بإسحاق عليه السلام، يسألهم عن كيفية هبة هذا الغلام بعد أن صار عجوزًا وانقطع حمل زوجه، فتخبره الملائكة أن هذا خبر صدق، لا ينبغي أن يرتاب فيه، ولا يجوز لأحد أن ييأس من رحمة الله تعالى فيخبرهم أنه ليس به يأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَن

(١) مفاتيح الغيب: ١٥٩/١٨.
(٢) المحرر الوجيز: ٢٧٤/٣.
(٣) أخرجه أحمد: ٤٩١/٣ رقم (١٦٠٥٩) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

﴿يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر]، فيدفع عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله «أي: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة»[1]، فإنه لا ييأس من رحمة الله تعالى إلا الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يدركون سعة رحمته ﷻ ونفاذ قدرته.

وأخبر ﷻ عن الكفار أنهم يائسون من رحمته، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣﴾ [العنكبوت] والتعبير بالاسم الموصول يفيد عِلِّية ما في حيز الصلة، فكأن كفرهم بآيات الله وتكذيبهم لقاءه ﷻ سبب يأسهم من رحمة الله تعالى، وسبب دخولهم العذاب الأليم، ويقوي هذا باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فـ«اسم الإشارة يفيد أن ما سيذكره بعده نالهم من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من أوصاف، أي: أنهم استحقوا اليأس من الرحمة، وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالقرآن وإنكارهم البعث»[2]، ويأسهم هذا إما في الآخرة حين يتيقنون مصيرهم، ويتحققون منزلهم، ينقطع رجاؤهم لأي سبب يؤدي بهم إلى الرحمة، وإما في الدنيا، فلا ينجح فيهم وعظ ولا تذكير، ولا يؤثر فيهم كتاب الله تعالى.

فبالنظر في هذه الآيات وغيرها ندرك أن أسباب اليأس من رحمة الله تعالى ترجع إلى الكفر به ﷻ والبعد عن منهجه، وضعف اليقين به تعالى، نسأله ﷻ أن يزيدنا يقينًا، وأن يثبتنا على دينه القويم ومنهجه المستقيم.

(١) إرشاد العقل السليم: ٨٢/٥.
(٢) التحرير والتنوير: ١٥٦/٢٠.

المبحث الرابع
من وُصِف بالرحمة في القرآن الكريم

المطلب الأول
الكتب السماوية

بالنظر في القرآن الكريم نجد أن الكتب السماوية وُصفَت بالرحمة، فالتوراة وصفت بالرحمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام]، والمراد بالكتاب هنا التوراة، أنزلت تامة إتمامًا للنعمة على موسى عليه السلام لإحسانه، وفيها بيان كل شيء يحتاجون إليه من أمور الدين، وفيها هدى من الضلالة، وإنزالها رحمة من الله جل جلاله عليهم، لكي يؤمنوا بالبعث، ويصدقوا بالثواب والعقاب(١). فنزول التوراة رحمة من الله تعالى حيث أنزل عليهم ما به يهتدون، وعن طريقه يصلون للرحمة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف] أي: ألواح التوراة التي كان ألقاها قبل ذلك عندما غضب، حيث عبد قومُه العجلَ، فأخبر الله تعالى أن ألواح التوراة هذه تشتمل على هداية ورحمة، لمن خاف الله سبحانه وتعالى وأراد الانتفاع بها. وقوله ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود:١٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

(١) ينظر: لباب التأويل: ٢/١٧٤.

ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ [القصص] وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف:١٢]، فهذه الآيات وغيرها تخبر أن التوراة كتاب رحمة وهداية.

والقرآن الكريم وُصِفَ بالرحمة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:١٥٧] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف] وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] وقوله ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢] وقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل] وقوله ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]، فهذا القرآن بما اشتمل عليه من الحجج الواضحة والدلالات الظاهرة يوصلكم إلى أعلى درجات الإيمان، وهو كذلك رحمة شاملة[1]، لكل الخلق، ولكنه خص المؤمنين والمسلمين والمحسنين، لأنهم المنتفعون بهداياته الراجون للرحمة العظمى يوم القيامة.

وهكذا كل الكتب السماوية تشتمل على هدايات لمن أراد أن يهتدي بها، وهي رحمة لمن أراد أن يرحمه الله تعالى.

(١) ينظر: التفسير الوسيط: ٣/١٥٧٥.

المطلب الثاني
الرُّسُل

مما لا شك فيه أن الكتب السماوية أنزلت عن طريق الرسل عليهم السلام، وإذا كانت الكتب الإلهية رحمة فلا ريب أن من هو وسيلة لوصول هذه الكتب رحمة عظمى -أيضًا- وقد وصف نبينا ﷺ بأنه رحمة في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] والمراد «توفيق الله جل جلاله نبيه محمدًا ﷺ للرفق والتلطف بهم، وإن الله تعالى ألقى في قلب نبيه ﷺ داعية الرحمة واللطف، حتى فعل ذلك معهم»[١]، فالرحمةُ من الله، والمتصف بها هنا نبيه ﷺ «قال الحسن البصري: هذا خُلُقُ محمد ﷺ بعثه الله به»[٢]

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، قال ابن عباس: «يريد للبر والفاجر؛ لأن كل نبي غير محمد ﷺ إذا كُذِّب أهلك الله من كذَّبه، ومحمد أُخر من كذّبه إلى موتٍ أو قيامةٍ، والذي صدقه عُجلت له الرحمة في الدنيا والآخرة»[٣]، قال ابن عطية: «ويحتمل الكلام أن يكون معناه: وما أرسلنك للعالمين إلا رحمة، أي: هو رحمة في نفسه، أخذ به من أخذ: وأعرض عنه من أعرض»[٤]

وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] فهو ﷺ رحمة للمؤمنين، حيث كان سببًا لهدايتهم ونجاتهم من النار، وهو يشفع لهم في الآخرة، و«خص المؤمنين وإن كان رحمة للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم»[٥].

(١) لباب التأويل: ٣١١/١.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٤٨/٢.
(٣) التفسير البسيط: ٢٢٩/١٥.
(٤) المحرر الوجيز: ١٠٤/٤.
(٥) البحر المحيط: ٦٤/٥.

ونظير هذه الآيات قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ووصف عيسى عليه السلام بأنه رحمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم] وذلك أن السيدة مريم عليها السلام لما بشرتها الملائكة بأنها ستحمل بعيسى عليه السلام سألتْ عن كيفية الحمل به، وهي لم تتزوج ولم يقربها بشرٌ، فأخبرها جبريل عليه السلام أن الحمل به بأمر الله تعالى دون ذَكَرٍ، وهذا أمر هين في قدرة الله تعالى، ثم أخبرها أن الحمل به سيكون آية للناس كلهم على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى، ثم أخبر أن هذا المولود سيكون رحمة من الله جل جلاله. قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده»[1]، فيعلم من ذلك أن مقام النبوة والرسالة رحمة من الله تعالى بالبشرية، فهي الطريق لاهتداء كثير من الناس، فالأنبياء كلهم رحمة من الله سبحانه وتعالى.

المطلب الثالث
المؤمنون

المؤمنون من أتباع جميع الأنبياء الأصل فيهم أنهم موصوفون بالرحمة، وإن تخلوا عن خلق الرحمة في أي وقت فإن ذلك خلاف الأصل، كما حدث من بني إسرائيل حين قست قلوبهم، فأصبحت أشد قسوة من الحجارة، أما المؤمن الحق فلا يتصور منه إلا الاتصاف بالرحمة المقتبسة من رحمة المنهج الذي معه، ورحمة النبي الذي يتبعه، الرحمة المستمدة من رحمة الإله الذي يعبده، وصف الله تعالى بهذه الرحمة المؤمنين من أتباع عيسى

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/٢٢٠.

عليه السلام، فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] أي: وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه مودة ولينًا يجمعهم على الخير، ويدفع عنهم الشر، وتعطفًا ومحبة تجلب لهم المنافع، وتقيهم المضار[١].

والمؤمنين من أتباع محمد ﷺ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] يخبر الله تعالى برسالة نبينا ﷺ ثم يخبر عن أتباعه أنهم «﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يرحم أحدهم الآخر، قال ابن عباس: الرجل للرجل منهم كالولد لوالده، والعبد لسيده»[٢]، و«كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم. وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول ﷺ»[٣]، ولا نطيل بذكرها الآن، وإنما الذي يعنينا أن المؤمنين وصفوا بالرحمة في القرآن الكريم، وقد شبههم رسول الله ﷺ في رحمتهم بالجسد الواحد، فقال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٤].

المطلب الرابع
الغيث

وقد أُطلق على الغيث رحمة في القرآن الكريم، فهو رحمة من الله بخلقه، ومواطن وصفه بالرحمة كثيرة، منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٧] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ

(١) ينظر: التفسير الوسيط: ٩/١٣٠٨.
(٢) التفسير البسيط: ٢٠/٣٢٦.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/١٧٣.
(٤) أخرجه مسلم ك/ البر والصلة ب/ تراحم المؤمنين وتعاطفهم: ٤/١٩٩٩ رقم (٢٥٨٦)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [النمل:٦٣] «يعني: أمام المطر الذي هو رحمته، وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة»[1] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم]، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى]، وقد سبق أن المراد بالرحمة في مثل هذه الآيات المطر، فهو مظهر من مظاهر رحمة الله وقدرته، لذلك سيقت هذه الآيات في سياق الاستدلال على قدرته تعالى وانفراده بالخلق والتكوين، فمما يذكرهم به رحمته بهم، ومن ذلك أنهم في جدبهم وقحطهم تتداركهم هذه الرحمة فينزل المطر، فيكون من آثاره أن يحيي الله الأرض الميتة، ويجري الأنهار، وينبت الزرع وتخرج الثمار، فيحيا الزرع والحيوان والإنسان، وتتحول البقعة التي نزل بها المطر إلى حياة تامة فيها جميع مظاهر الحياة.

المطلب الخامس
التشريعات الإلهية

مما لا شك فيه أن التشريعات الإلهية إنما هي رحمة من الله تعالى بعباده، حيث إنه ﷻ وضع لهم منهجًا يسيرون عليه، منهجًا لا يصلح لهم ولا يُصْلحهم سواه، حتى تشريعاته التي قد تبدو فيها شدة وقسوة، هي في حقيقة الأمر رحمة بهم لمن تأملها حق تأملها، وفهمها حق الفهم، يظهر ذلك جليًّا في آية القصاص، حيث يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ

(١) لباب التأويل: ٢/٢١٢.

أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٧٨]، فبعد أن ذكر القصاص يقول: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾، فهو وإن كان فيه شدة وقسوة على الجاني إلا أن فيه تخفيفًا ورحمة بالمجتمع كله، لذلك كان التعقيب الإلهي في الآية التالية ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة]، إنه حياة للمجتمع كله ورحمة بالمجتمع كله أن يأخذ على يد الظالم الباغي، ليردعه حتى يرعوي عن غيه، وينتهي عن جرمه وتعديه على المجتمع، فضلا عما في تشريع القصاص من رحمة بالجاني أيضًا، "قال المفسرون: إن الله تعالى كتب على أهل التوراة أن يُقيدُوا، ولا يأخذوا الدية، ولا يعفوا؛ وعلى أهل الإنجيل أن يعفوا ولا يقيدوا ولا يأخذوا الدية؛ وخَيّر هذه الأمة بين القصاص والدية والعفو، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، أي: التخيير بين هذه الأشياء"[1].

وإذا كان المولى ﷻ ذكر أن تشريع القصاص تخفيف ورحمة، فقد ذكر في غيره أنه يسرٌ، كما ذكر في الحديث عن الصيام ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهل إرادة اليسر إلا رحمة من الله تعالى، وذكر في تشريع الجهاد أنه رفع عن هذه الأمة الحرج، فقال: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨]، وفي الوضوء يقول: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة:٦]، وهل رفع الحرج إلا مظهرًا من مظاهر رحمته تعالى، هذا فضلًا عما في بقية التشريعات من رحمة يدركها المنصف بأدنى تأمل.

(١) التفسير البسيط: ٣/ ٥٤٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد هذه الجولة التي حاولت فيها التأصيل لخلق الرحمة من القرآن الكريم، يطيب لي أن أسجل أهم النتائج، وهي:

- أن الرحمة خلق إسلامي أصيل، ورد التأكيد عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.
- أنها استعملت في القرآن بصيغ كثيرة، منها الفعل والاسم والمصدر، ونكرة ومعرفة.
- أنها وردت في القرآن على أوجه كثيرة، منها: الجنة، والإسلام، والنبوة، والقرآن، والمطر، والمغفرة...
- أن هناك ألفاظًا قريبة في المعنى من الرحمة، منها الرأفة، والنعمة، والمغفرة، والعفو، والرقة.
- أن الرحمة صفة من صفات الله تعالى، فهو الرحمن الرحيم، وهي من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ المخْلُوقِين.

- أن رحمة الله تعالى عامة لكل الخلق، وإن كان هناك أنواعًا منها تخص بعضًا دون بعض.
- لرحمة الله مظاهر كثيرة، منها، إرسال الرسل وإنزال الكتب، عدم مؤاخذة الناس بذنوبهم في الدنيا وعدم معاجلتهم بالعذاب، خلق الليل والنهار، الرزق، إنزال المطر، رفع الضر عنهم، وشمولهم بالنعم.
- أن موجبات رحمة الله تعالى كثيرة، منها؛ طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، اتباع القرآن الكريم، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، الاستغفار، الإصلاح بين المؤمنين، وتقوى الله تعالى.
- أن اليأس من رحمة الله منهيٌّ عنه شرعًا، وأن له أسبابًا ترجع في مجملها إلى البعد عن منهج الله تعالى.
- أنه ورد وصف الرحمة في حق غير الله تعالى، ومن ذلك: الكتب السماوية، الرُّسُل، المؤمنون، الغيث، التشريعات الإلهية.

لذا فإني أوصي الباحثين والدعاة بأن يبرزوا هذا الخلق الرفيع من أخلاق الإسلام، ويؤكدوا عليه، ويبينوا أصالته في الدين الإسلامي، وأوصي المسلمين جميعًا أن يتحلوا بهذا الخلق الإسلامي، الذي طالما كان الاتصاف به من وسائل الدعوة إلى الله تعالى

وبعد، فهذه محاولة مني للتأصيل للرحمة من خلال آيات القرآن الكريم، فإن أكن قد وفقت فمن الله وحده، وله الحمد والمنة، وإن تكن الأخرى فمن نفسي، وأسأل الله تعالى أن يغفرها لي، إنه سميع قريب مجيب، والحمد لله أولًا وآخرًا، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث:

١. الإتقان في علوم القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المتوفى (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، المتوفى (٩٥١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
٣. الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، المتوفى (٣٢١هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٣.
٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٥. البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، المتوفى (٧٥٤هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٦. البحر المديد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، المتوفى (١٢٢٤هـ) دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م- ١٤٢٣هـ.
٧. بدائع الفوائد، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية، المتوفى (٧٥١هـ) تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
٨. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، المتوفى (٨١١هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٩. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للإمام: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المتوفى (٨١٧هـ) تحقيق: عبدالعليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، المتوفى (١٣٩٣هـ) مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
١١. تفسير ابن عرفة، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عرفة التونسي، المتوفى (٨٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
١٢. التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي، المتوفى (٤٦٨هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١.
١٣. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المتوفى (٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
١٤. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
١٥. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، المتوفى (٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
١٦. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبدالرؤوف المناوي، المتوفى (٩٥٢هـ) تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر- بيروت، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، المتوفى (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
١٩. الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي، المتوفى (٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠. الجامع الصحيح من حديث رسول الله ﷺ وسنّته وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، المتوفى (٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٢١. درج الدرر في تفسير الآي والسور، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن ابن محمد الجرجاني، المتوفى (٤٧١هـ)، تحقيق: وَليد بِن أحمد بن صَالِح، وآخرين، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
٢٢. دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، دار الكتب العلمية- لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٢٣. زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المتوفى (٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي- بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
٢٤. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعروف بأبي زهرة، المتوفى (١٣٩٤هـ) دار الفكر العربي.
٢٥. سنن الإمام أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى (٢٧٥هـ) دار الكتاب العربي- بيروت.

٢٦. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى (٣٩٣هـ)، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٢٧. صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، المتوفى (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٢٨. العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، المتوفى (١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٢٦هـ.
٢٩. الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى (٥٣٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة- لبنان، ط٢.
٣٠. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، المتوفى (١٣٠٧هـ)، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصرية للطباعة والنّشر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٣١. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، المتوفى (٣٩٥هـ)، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، بقم المقدسة، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٢. كتاب العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، المتوفى (١٧٥هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٣٣. الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المتوفى (٤٢٧هـ)، تحقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٣٤. كتاب الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- للإمام: أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكوفي، المتوفى (١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٥. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر، المعروف بالخازن، المتوفى (٧٤١هـ) تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٦. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٧. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المتوفى (٧٢٨ه)، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٣٨. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي السقا، دار نهضة مصر، ط١.

٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المتوفى (٥٤٦هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية- لبنان، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٤٠. المحيط في اللغة، الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المتوفى (٣٨٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب- بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٤١. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، المتوفى (٤٥٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٤٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المتوفى (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
٤٣. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المتوفى (٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.
٤٤. مسند أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، المتوفى (٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، القاهرة.
٤٥. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى (٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٤٦. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى (٣٩٥هـ) تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٤٧. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، المتوفى (٦٠٦هـ) دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٤٨. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المتوفى (٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة- لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
٤٩. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، المتوفى (٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.

٥٠. نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المتوفى (٩١١هـ) جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٥م.

٥١. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، أبو عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني، المتوفى (٤٧٨هـ)، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.